6

الأيام الأولى

الأشهـر الستـة الأولى التي تلت استلام بوش لمقاليد الحكـم في العشرين من كانون الثـاني، ينايـر سنة 2001 كانـت حاسمة في التعريف ببوش وإدارته. تبـين لبوش وكبار مستشاريه أهمية تحقيق بعض الانتصارات عبر التوقيع على بعض قرارات تتعلق بسياسة الإدارة مثـل خفض الضرائب وإصـلاح التعليم. كما أراد أركان حكمـه تصويره على أنه القائـد القوي القادر على توحيد الشعب الأمريكـي، وأنه يملك الثقل الضروري في مجال السياسة الخارجية (وهذه الأخيرة كانت مصدر قلق حول قدرة قيادة بوش).

في الوقت نفسه، كانت نغمة الأداء التي أطلقتها هذه الإدارة ذات أهمية قصوى. كانت الأغلبية الساحقة من الأمريكيين تتوق إلى أن يستعيد الخطاب السياسي الوطني حضاريته. فقد أرهقها الإفراط في النزوع إلى الحروب الحزبية التي سادت عقد التسعينات، وكانت مستعـدة للانتقـال إلى مرحلة ما بعد فضائـح كلينتون الشخصيـة، وأنهكها تمديد مدة الانتخابـات سنة 2000. ولكن لم يكن مؤكداً أن واشنطـن كانت مستعدة للاستجابة إلى الدعوة للعمل بشكل جماعي في جو يسوده التعاون الحزبي.

اكتشف بوش أثناء الحملة المزاج العام لغالبية الأمريكيين الذين كانوا في موقع الوسط السياسـي، أو يميلون باتجاهه. حـث الأمريكيين على وضع حد «لسياسة الغضب»، والبدء في «انطلاقـة جديـدة بعد عصر مـن التهكم». قال بوش إنه ليس علـى واشنطن أن تكون «منطقة سياسة الصفر، أي سياسة الغالب والمغلوب».

الآن، وفي مستهل رئاسته، بدا لي أن بوش ملتزم بتطبيق هذه التوجهات. ففي الخطاب الذي ألقاه في حفل تنصيبه، عاد بوش إلى موضوع الحملات:

أمريكـة في أفضـل أحوالها، هي أهل للوفاء بالتزاماتهـا بالمبادئ وتضع نصب عينيها القيـم المدنيـة. يتطلب المجتمع المدني مـن كل فرد من بيننـا الإرادة الطيبة، والاحترام،

والتعامل العادل فيما بيننا، والتسامح. يبدو أن البعض من بيننا مؤمن بأن سياستنا يمكن أن تكون ضيقة الأفق، لأن مردود مداولتنا في زمن السلم يبدو غير ذي شأن. لكن المردود بالنسبة لأمريكة ليس قليل القيمة أبداً ... يجب أن نكون على مستوى ما نشترك جميعاً فيه. المدنية ليست تكتيكاً، ولا عاطفة. إنها الخيار الحر لروح الثقة مقابل روح التهكم، وروح الجماعة مقابل الفوضى. إن هذا الالتزام، إذا ما حافظنا عليه، سيكون الطريق إلى الإنجاز الذي نحققه جميعاً.

لا أحد في البيت الأبيض، بمن فيهم أنا، كان ساذجاً لدرجة أنه لم يكن يعي صعوبة وضع حد للحروب الحزبية العميقة الجذور في واشنطن في الأيام الأولى تلك. لكنني كنت أؤمن بأن بوش كانت لديه الإرادة كي يقوم ببذل جهد جماعي ومنظم للارتقاء فوق المناوشات الحزبية المدمرة والانحرافات التي تتسبب فيها آلة الضجيج في واشنطن. لسوء الحظ، جرت الأمور عكس المبتغى. وعندما أنظر ورائي وأتذكر ما كان يجري في الغرف المغلقة خلف الأداء العلني للبيت الأبيض خلال تلك الأشهر الأولى من عمر الإدارة، فإني أتوصل إلى فهم أفضل لبعض العوامل التي أسهمت فيما بعد في انحراف رئاسة بوش عن خطها المرسوم.

كانت الأسابيع القليلة الأولى تعج بالنشاط الفوضوي. كان كل شيء يتم دفعة واحدة. انتقلت إلى شقتي الصغيرة في مركز المدينة في منتصف الطريق بين مبنى الكابيتول والبيت الأبيض بعد حفل التنصيب في نهاية الأسبوع. كانت متطلبات الانتقال إلى البيت الأبيض كنائب للسكرتير الصحفي من الكثافة بحيث أنها لم تترك لي سوى قليل من الوقت للاستمتاع بالاحتفالات التي كانت تجري. كنت كما الكثيرون غيري، قد أنهيت للتو حزم أمتعتي من المكتب الانتقالي في اليوم السابق. اقترح علينا جو هاغن، نائب رئيس أركان البيت الأبيض الجديد لشؤون العمليات الانتظار حتى مساء يوم الأحد قبل الدخول إلى مكاتبنا الجديدة في الجناح الغربي وذلك كي نفسح المجال لإكمال أعمال التنظيف والترتيب. عندما وطئت قدمي عتبة المبنى وأنا أحمل لوازمي الشخصية التي كنت قد وضعتها في علبة، شعرت بأن تلك اللحظة ستفتح أمامي بالتأكيد باب النجاح. سوف تكون

هنـاك العديد مـن اللحظات المشابهة خلال الأسابيع الأولى مـن ولاية بوش، بما في ذلك اللحظة التي قفلت فيها عائداً بسيارتي إلى المنزل بعد يوم عمل طويل في الجناح الغربي، آخـذاً الطريق الشرقي باتجـاه الجانب العشبي الجنوبي من البيـت الأبيض. نظرت إلى يساري، وهناك كان البيت الأبيض - قصر الشعب - يلمع تحت الأشعة الصفراء الناعمة المنبثقـة مـن طوفان من الإضـاءة التي تشق عتمة ليل واشنطـن. لا يمكن لهذا المنظر أن يشيخ أبداً.

أسرعنـا نحث الخطى يوم الاثنين، وهو أول يوم عمل كامل لنا. استيقظت في الخامسة صباحـاً، وشرعـت في قـراءة صحيفتـيّ النيويورك تايمـز والواشنطن بوسـت وهما أكثر صحيفتين تمليان توجّهَ وسائل الإعلام الوطنية، وتصيغان عناوين الأخبار. انطلقت بعدها باتجـاه البيـت الأبيض حيث وصلت قبـل السابعة صباحاً. عقدت عـدة اجتماعات مبكرة مـن أجل مناقشـة القضايا الصحفية المطروحة في ذلك اليـوم بالإضافة إلى إستراتيجية الرسالـة، وأعقب ذلك اجتماع السكرتير الصحفي الصباحي مع جمهرة من الصحفيين. تلا ذلك العرض الصحفي لفترة ما بعد الظهر، وهما الجلستان العلنيتان اللتان ستصبحان محـور نشاطـي اليومي في الدور الجديد الذي أقوم به. تحولـت دورة العمل بسرعة إلى ما يشبه الروتين، إلا أنها لم تكن يوماً أقل تطلباً - أو مثيرة للملل أبداً.

منـذ البداية، كان موضوع العراق يلـوح في خلفية المشهد. في يوم الاثنين ذاك، ذكرت النيويـورك تايمز نقـلاً عن تقريـر استخباراتي محلي جديد وذلك علـى صدر صفحتها الأولى أن العـراق يعيد بناء المصانع «التي كانـت الولايات المتحدة تشكك دائماً أنها تنتج أسلحـة كيميائية وبيولوجية، استناداً إلى ما ذكـره مسؤولون كبار في الحكومة». وأطلقت التايمـز على ذلك التقرير امتحاناً أولياً لتعهد بوش «بأنه سيتخذ موقفاً أكثر تشدداً» من صدام حسين مما قام به سلفه المباشر.

بقـي العـراق على رأس القضايا التي ركزت عليهـا كل مـن الإدارة ووسائل الإعلام في الأشهـر التي تلت استـلام بوش للرئاسة. وضع مجلس الأمن القومي العراق على رأس أولوياتـه في عملية صياغـة سياسته. أما بشأن اليوم الأول، ونظـراً إلى أنه لم يكن قد تم حتى ذلك الحـين وضع سياسة محددة وصارمة حول هذا الموضوع، فقد أبلغنا الصحافة

أن الرئيس يتوقع من صدام حسين أن يلتزم باتفاقه مع الأمم المتحدة القاضي بعدم قيام نظامه بإنتاج أسلحة دمار شامل.

أصدر الرئيس بوش في اليوم نفسه مذكرة وجهها إلى مدير وكالة التنمية الدولية الأمريكية طالباً منه إعادة تفعيل ما يسمى سياسة مكسيكو- سيتي. هذه السياسة التي أقرها في البداية رونالد ريغان تقول إن أي منظمة غير حكومية تتلقى الدعم المالي من وكالة التنمية الدولية الأمريكية لا يمكن أن تمول أو تسوق لعمليات الإجهاض كطريقة من طرائق التخطيط العائلي، باستثناء حالات الاغتصاب، وسفاح القربى، وما يمكن أن يعرض حياة الأم إلى الخطر. كانت تلك إشارة مبكرة إلى قاعدة بوش الاجتماعية المحافظة توحي بأن إدارته ملتزمة بقوة بالقضايا التي تهم هذه القاعدة المحافظة.

وكما كان مخططاً، فقد ركز بوش علناً على إصلاح التعليم منذ الأسبوع الأول. بدأنا عملية الإطلاق يوم الثلاثاء مركزين على العناصر الرئيسة للمبادرة بما في ذلك ما يتوجب على الولايات فعله لتطوير أنظمة امتحاناتها السنوية لقياس مدى التقدم الذي أحرزه الطلبة، وكذلك مدى المرونة المتزايدة التي وفرتها عملية إنفاق الأموال الاتحادية، وشروط تقديم المساعدات الإضافية للمدارس ذات الدخل المتدني، ومبدأ تقديم خيار الدراسة للطلبة الذين يعتبرون بحكم الراسبين.

تم التركيز بشكل كبير على إظهار أن الرئيس يمد يده إلى أعضاء الكونغرس الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء. كان الكونغرس منقسماً بشكل حاد، لكن مجلسيْ الكونغرس كان يسيطر عليهما الجمهوريون، وكان مجلس الشيوخ منقسماً بنسبة خمسين مقابل خمسين، ولكن نائب الرئيس تشيني كان يملك الصوت المرجح، مما منح الجمهوريين السيطرة على المجلس بالرغم من اتفاقهم مع الديمقراطيين على تقاسم السلطة. أما في مجلس النواب، فإن الانقسام كان على الشكل الآتي: 221 نائباً جمهورياً مقابل 211 نائب ديمقراطي، إضافة إلى اثنين من المستقلين. (نظراً إلى وفاة عدد لا يستهان به من النواب واستقالة آخرين، فقد كانت الأعداد تتفاوت قليلاً في الأشهر اللاحقة).

في الأسابيع الأولى من ولايته، عقد بوش سلسلة من الاجتماعات مع قادة الحزبين لمناقشة أهم الأولويات المتعلقة بالسياسة الداخلية بما في ذلك التعليم، وإلغاء الضرائب، ومبادرته التي تستند إلى الإيمان، وقانون حقوق المرضى – وهي أولويات أطلق عليها بوش وصف «القضايا الساخنة جداً على رأس القائمة». قمنا بتسجيل نقطة لصالحنا تتمثل في جذب الانتباه إلى حقيقة أننا مددنا يد التعاون إلى كلا الحزبين.

أول رحلة لي مع الرئيس بوش بعد انضمامي إلى أركان البيت الأبيض كانت إلى خلوة لأعضاء مجلس النواب من الحزب الديمقراطي، عقدت في منتجع يقع خارج مدينة بيتسبيرغ مباشرة في أول عطلة نهاية أسبوع من شهر شباط، فبراير. وقد سبق لبوش حضور خلوة أعضاء مجلس الشيوخ من الديمقراطيين. لم يحضر كلينتون أبداً خلوات الجمهوريين، ومن ثم فإن خطوة بوش حظيت باهتمام وسائل الإعلام، واستحقت الثناء من القادة الديمقراطيين وذلك لتخطيها الحواجز الحزبية. ولم تكن تلك الخلوة مفتوحة أمام الصحافة.

بدأ الرئيس إبداء ملحوظاته في تلك الخلوة بالقول: «سوف أبذل كل ما بوسعي من أجل تغيير نغمة الحوار في واشنطن. آمل أن يختلف الناس بطريقة مقبولة. أحد الأشياء التي صممت على تحقيقها هي القول: هذا هو موقفي، وأود أن أسمع رأيكم أيضاً. سوف يتطلب التعاون بين الحزبين أكثر من مجرد كلمات نلقيها من أجل التسويق لسياسة علاقات عامة جيدة – وأنا واثق من أننا هنا جميعاً من أجل القيام بذلك».

ثم أضاف قائلاً: «خضت انتخابات الرئاسة بناء على أجندتي. أنا هنا اليوم لأن هذا ما أريد أن أتحدث معكم بشأنه. أؤمن بأن فعل الشيء الصحيح يتمثل في القيام بفعل ما قلت إنك سوف تفعله» أثناء الحملة الانتخابية. أردف موضحاً أنه مصمم أن يثبت أن هذا التوقع في غير محله بالقول: «إن ما يتوقعه بعضهم هو أن شيئاً لن يحدث بسبب قرب موعد الانتخابات». وتابع: «أحد أسباب قدومي إليكم في هذا المكان هو لأقول لكم من أنا، وما هي أجندتي، ولأستمع إلى ما ترغبون في قوله».

تلقى بعد ذلك عدداً من الأسئلة. قال له عضو مجلس النواب العجوز تشارلي رانغل عن مدينة نيويورك، والذي يتمتع بقدر واسع من الاحترام بصوت أجش لكنه آسر: «أيها السيد الرئيس، أنت شخص جيد!» أقرَّ بعدها أن بوش «أظهر الكثير من الشجاعة» بزيارته إلى تلك الخلوة لمد يد التعاون إلى الديمقراطيين، وتساءل فيما إذا كان بوش سوف يحث قادة حزبه أيضاً على العمل معاً عبر جانبيّ المجلس. أجاب بوش أنه «ملتزم بحمل هذه الرسالة الحضارية نفسها إلى قيادة الحزب الجمهوري».

بعد عدة سنين، كنت أسمع رانغل عضو الأقلية في لجنة الطرق والوسائل، القوية النفوذ يعبر أكثر من مرة عن تقديره للرئيس بسبب دعوته قادة الحزبين إلى البيت الأبيض - وكانت تعقب ذلك شكاوى تفيد بأن بيل توماس، رئيس اللجنة من الحزب الجمهوري، لا يفعل الشيء نفسه، وذلك بعدم إفساحه المجال بما يكفي لأعضاء اللجنة من الحزب الديمقراطي للاشتراك في المداولات داخل اللجنة.

أما الخلوة، فقد كانت اجتماعاً ودياً، ولكن كان من الصعوبة بمكان القول فيما إذا كان الديمقراطيون منفتحين حقيقةً على الجهود المبذولة من أجل التعاون الحزبي، أو أنهم كانوا مقتنعين بصدق توجه بوش. بعضهم كان ما يزال منزعجاً من قضية إعادة فرز الأصوات في ولاية فلوريدا، بما في ذلك التحدث إلى المؤتمرات الحزبية للأمريكيين السود. قاموا بممارسة الضغط على بوش من أجل إجراء إصلاحات انتخابية مستخدمين نبرة تنم عن توتر واضح. ولكن رغبة يشوبها الشك برزت من بين صفوف قادة الحزب الديمقراطي، وغالبية المجتمعين، للتأكد من أن الرئيس سوف يحكم انطلاقاً من مصالح القاعدة العريضة، أي من الوسط، ويأخذ بعين الاعتبار مخاوف الديمقراطيين. كان التخطيط لأغلب الأشهر الستة الأولى قد تم مسبقاً من قبل كبار مستشاري الرئيس، وتم ذلك بطريقة المدرب البارع الذي يخطط (لدزينة) من مباريات كرة القدم مسبقاً. وتعد السيطرة على مقادير الأجندة في واشنطن وسيلة للتركيز على الصورة الرئيسة، حتى عندما يكون المرء يرد على الأخبار اليومية، ويجيب على ما هو غير متوقع. فهم روف هذه المعادلة جيداً، وعليه، فقد استطاع قيادة جهود التخطيط الاستراتيجي مستنداً إلى ما

كان قـد زوده به عدد من كبار المساعدين في البيت الأبيض، خصوصاً كارن هيوز، وآندي كارد، وكوندوليزا رايس.

إحدى الطرق التي حاولنا فيها إطلاق هذه الأجندة كانت عبر الحصول على «موضوع الأسبوع»، الذي تتركز حوله أغلب عناصر النشاطات العامة التي يتضمنها جدول أعمال الرئيس. فكان يكرس أسبوعاً من أجل موضوع التعليم، يزور خلاله المدارس، ويتحدث إلى مجموعات من الآباء والمدرسين. كان يمضي أسبوعاً آخر يركز فيه على موضوع خفض الضرائب، ويجتمع مع «عائلات الضرائب» وصغار رجال الأعمال متحدثاً إليهم باستفاضة عن الفوائد التي سيجنونها بموجب خطته لتخفيض الضرائب، تماماً كما كان يفعل أثناء حملته الانتخابية. وكان يركز في أسبوع آخر على قضايا الدفاع، ويقوم بزيارته الأولى إلى إحدى القواعد العسكرية، وهي قاعدة فورت ستيوارت في ولاية جورجيا للتحدث عن مبادرته من أجل مشروع إسكان أفضل لأفراد القوات المسلحة، وكان يتبع ذلك باختلاق مناسبة لتسويق فكرة تطوير القدرات العسكرية من أجل مواجهة التهديدات الجديدة في عصر ما بعد الحرب الباردة، وهو ما كان يشكل أولوية في السياسة الخارجية طيلة مدة الحملة الانتخابية.

تلك كانت جزءاً من خطتنا المرسومة بدقة كي ندفع بالرئيس للبدء في انطلاقة سريعة، ولتقديمه كقائد قوي مصمم على الوفاء بوعوده التي أطلقها إبان حملته الانتخابية، وعلى تنفيذ الخطط المرسومة.

منذ الأيام الأولى من عملي، أصبحتُ جزءاً من العمليات السياسية والتشريعية وعمليات وسائل الاتصالات في البيت الأبيض. كانت لي حصتي من الاجتماعات: اجتماعات الإستراتيجية التشريعية لمناقشة المبادرات المهمة؛ اجتماعات يومية حول موضوع الاتصالات بإدارة كارن هيوز؛ اجتماعات مع رئيسي المباشر، آري فليشر، وذلك قبل بدء الاجتماع مع كبار الموظفين، والجمهرة الصباحية، ولقاءات فترة ما بعد الظهر؛ والاجتماعات التي تعقد مرتين أسبوعياً لتنسيق مواعيد المناسبات العامة التي سيحضرها الرئيس؛ واجتماعات رسم السياسات حول موضوعات محلية محددة بما في ذلك مشروع

قانـون حقوق المرضـى، ومشروع قانون إصـلاح تمويل الحمـلات الانتخابية، والمشكلات العرقية، والبيئة، والرعاية الطبية، وأبحاث الخلايا الجذعية، والتعليم.

تقاسمـت مع زميلتي كلير بوكان المسؤوليات بحسـب الموضوعات. تولت كلير القضايا الاقتصادية، وأخذت أنا على عاتقي أغلب الموضوعات المحلية الأخرى؛ بينما تولى المكتب الصحفي لمجلس الأمن القومي شؤون السياسة الخارجية. كنا نتأكد من أننا قمنا بتغطية جميـع الموضوعات للسكرتير الصحفي عبر تحضير النقاط التـي يريد التحدث بشأنها، ومساعدته في أن يكون مطلعاً أولاً بأول على الموضوعات كافة وذلك لتجنب وقوع أي مفاجآت في قاعـة اللقاءات الصحفية. عندما كنت أنوب عـن آري، كان عليّ القيام بالتركيز على موضوعـات أكثر شمولية. كنت أحياناً أشارك أيضـاً في الاجتماعات الرئاسية مكان آري بما في ذلك اجتماعات الكونغرس، واجتماعات عرض السياسات.

بالإضافـة إلى قيامه بالتواصل مع أعضـاء الكونغرس من الحزبين، فقد قام الرئيس بالتواصـل مـع كبـار زعماء العـالم. كانت تلـك محاولة لإظهـار الرئيس بمظهـر المهتم «بالدبلوماسيـة الشخصية» الهادفة إلى تقويـة تحالفاتنا في الخارج. كان من المهم إبراز مقـدرة بوش علـى التأسيس لعلاقات شخصيـة قوية مع الحلفاء، آخذيـن بعين الاعتبار خبرته المحدودة في مجال السياسة الخارجية.

كانـت واجباتي كنائـب للسكرتير الصحفي تتضمن أيضـاً مرافقة الرئيس في رحلات رئاسية مختارة. كلما سافر الرئيس إلى وجهة ما، كان يرافقه بيت أبيض افتراضي يتكون مـن مستشاريـن، وموظفي دعم، وعملاء سريين للحماية، وأفـراد من الجيش. تمد وكالة الاتصـالات في البيت الأبيض (WHCA)، وهي ذراع للمكتـب العسكري في البيت الأبيض خطوط اتصالات آمنة، وأخرى غير آمنة في الغرف التي يحتلها الرئيس، ومواقع الموظفين المرافقـين في المواقـع التي تجري فيها المناسبـات، وكذلك في مكاتـب الموظفين والأجنحة الرئاسيـة في الفنادق التي ينزل فيها الرئيس، وتقيم مراكز توثيق صحفية تتضمن منصة مـن أجل أي تصريحات أو مقابلات محتملة، كما تهيـئ مكتباً صحفياً تضع فيه مجموعة من أجهزة الكومبيوتر وخطوط الاتصالات الهاتفية. يسافر السكرتير الصحفي عادة على

مـتن الطائرة الرئاسية (Air Force One) بينما يسافر واحد من نائبيّه، كلير أو أنا، على مـتن طائـرة الصحفيين المؤَجّرة المرافقة. أما في الرحـلات الخارجية، فإن الناطق باسم مجلس الأمن القومي يرافقه أيضاً مع بقية أفراد السلك الصحفي التابع للبيت الأبيض.

أول رحلة لنا إلى الخارج كانت لمدة يوم واحد توجهنا فيها إلى مدينة سان كريستوبال في المكسيك في شباط، فبراير، حيث شارك الرئيس في سلسلة من النشاطات والاجتماعات مع الرئيـس فينسينت فوكس. وكان من المفارقة التـي تستشرف المستقبل أن المؤتمر الصحفي المشـترك الأول الـذي عقده الرئيس مـع أحد زعماء العالم، وكان ذلـك في مزرعة الرئيس فوكـس، طغت عليه أسئلة حول العراق. كانت الطائرات الحربية البريطانية والأمريكية قد قصفـت لتوها عـدداً من مواقع الرادار والدفاعات الجوية بمـا في ذلك مواقع حول بغداد. كان تنفيـذ هـذه المهمة يتطلب موافقة من الرئيس لأن هـذه المواقع تقع خارج منطقة حظر الطـيران في العراق، والتي فرضناها بالتعاون مـع البريطانيين. كان ذلك رداً على الجهود العراقية المكثفة من أجل محاولة إسقاط لطائراتنا داخل منطقة حظر الطيران، بما في ذلك إطـلاق صواريخ أرض- جو. وكان ذلك أول عمـل عسكري ذي شأن يوافق الرئيس الجديد علـى القيـام به. وصف بوش هذا الـرد «بالمهمة الروتينية» لتعزيـز منطقة حظر الطيران، ولتذكير صدام حسين أن عليه الالتزام بالاتفاقات التي وقعها بعد حرب الخليج.

بعد انتهاء الزيارة، قفل آري عائداً إلى واشنطن مع بعض الموظفين لقضاء عطلة نهاية الأسبـوع. وكانـت هذه بداية لسلسلة من رحـلات قمت بها على متن الطائـرة الرئاسية، وتضمنـت جولة رافقني فيها رئيس طاقم المضيفـين في الطائرة - وكانت لحظة أخرى لا تنسـى، ذكّرتني باللحظة التي ابتسمت فيها الحياة لي عندما ولجت إلى داخل المعمعة في البيت الأبيض.

حضـر الرئيس والسيدة بوش حفـل إقامة النصب التذكاري الوطني في أوكلاهوما في اليوم الثاني، وكان يوم الاثنين قبل العودة إلى واشنطن. ما زلت أذكر بوضوح تجوالي في ذلـك المتحف التفاعلـي الذي أقيم تخليداً لذكرى التفجـير الرهيب لمبنى مورا الاتحادي سنـة 1995 الذي قام بـه تيموثي ماكفي. كانت صالة الشـرف، وهي واحدة من محطات

الجولـة، غرفة مظلمة كان الناس يسمعون فيها تسجيـلاً لجلسة استماع في إحدى غرف الاجتماعات قطعتها فجأة أصوات انفجارات قوية. وحالما تعود الإضاءة إلى الغرفة، فإنك تلحظ فوراً صوراً لمئة وثمانية ستين شخص فقدوا حياتهم في ذلك التفجير.

في وقـت لاحق من شهر شباط، فبراير، استضاف الرئيـس طوني بلير رئيس وزراء بريطانيا العظمى في منتجع كامب ديفيد. كان العراق على جدول أعمال الاجتماع، وأثار فضـول الصحفيين الذين غطوا المؤتمر الصحفي الذي عقد أثناء الزيارة. تحدث بوش وبلـير عن ضرورة إعادة النظـر في العقوبات المفروضة على العراق عبر الأمم المتحدة. كانـت الفكرة تقضي بأن يتم فرض مـا اصطلحنا عليه بمصطلح العقوبات الذكية التي تهـدف إلى كبـح لجام النظام مـن دون إيذاء الشعـب العراقي وذلـك بتشديد الرقابة علـى البضائـع التي يمكـن أن تستخـدم لأهداف عسكريـة، ومنع النظـام الحاكم من الحصـول علـى تمويل سري وغـير قانوني من تهريـب النفط. ردد بوش مـا قاله بلير: «إن أي تغيـير في العقوبـات لا يجب أن يؤدي بحال من الأحـوال إلى أي تشجيع أو تقوية لصـدام حسين. عليه أن يفهم أننا سوف نقـوم بمراقبته عن كثب، وإذا تحققنا من أنه يقوم بتطوير أسلحة دمار شامل، فسوف نقوم باتخاذ الإجراءات المناسبة. وإذا ثبت أنه يهدد جيرانه، فسوف نقوم باتخاذ الإجراءات المناسبة». كان صدام يُعتبَرُ «مشكلة» وليس «خطراً رهيباً تزداد حدته» في الأيام الأولى تلك. كان الحديث يتركز آنذاك حول ما إذا كان يطور أسلحة دمار شامل، وليس حول أنه يقوم بتطويرها.

المسؤولية الأخرى التي كانت منوطة بي في الأشهر الأولى هي أنه كان يطلب إليّ أحيانا التواجـد في مقابلات صحفية لكبـار المسؤولين. في بداية شهر شبـاط، فبراير، حضرت بعضـ المقابلات التي قمنا بترتيبها لرئيـس أركان البيت الأبيض آندي كارد. ففي مقابلة مـع وكالـة الأسوشيتد برس لخص آنـدي بإيجاز شديد آراءه حول ثـلاث من المسؤوليات الجوهريـة المناطة بموظفي البيـت الأبيض: الإشراف على «العنايـة بالرئيس وإطعامه»، والتأكـد مـن عملية صياغـة السياسة بشكل منضبـط، وإدارة عملية الترويـج لسياسات الرئيـس وتسويقها. كان آندي يستوعب جيـداً الصورة الكلية. عرف آندي، شأنه في ذلك شأن كارل روف، وكارن هيوز، والرئيس نفسه، أن تسويق السياسة وبيعها – وهذه طريقة

أخـرى لتوصيف الحملات الدائمة – عاملٌ مهـم في تنفيذ ما هو مرسوم، ومقياسٌ رئيسٌ من مقاييس قوة الرئيس ونجاحه.

أشرف كارل روف على عملية التخطيط الاستراتيجي داخل البيت الأبيض فيما يتعلق بترويج السياسة وتسويقها. أسس روف لاجتماعاتٍ «إستراتيجيةٍ» دوريةٍ مستخدماً عبارة مشتقـة ليس، كما قد يظن بعضهم، من عبـارة قالها في واقع الأمر بوش نفسه، ولكن من عبارة ساخرة في برنامج Saturday Night Live قالها ويل فيريل الذي كان يقلد بوش في ميله إلى «تشويه اللغة الإنجليزية» (أي تحدث مثل بوش نفسه).

ركزت اجتماعات «الإستراتيجية» علـى التخطيط والإستراتيجية الطويليْ الأجل لمدد تـتراوح بين أسابيع وأشهر قادمة. كان مكتـب روف للمبادرات الإستراتيجية يساعد على تنسيـق الجهود بما في ذلك تحضـير المواد وإجراء الأبحاث من أجـل معرفة كيف تعامل البيـت الأبيض في العهود السابقة مع تحديات مشابهـة. كان النجاح الانتخابي هو الغاية القصوى – كسب المزيد من المقاعد للجمهوريين في الكونغرس سنة 2002، وإعادة انتخاب جورج بوش للرئاسة سنة 2004.

الحاضـرون في اجتماعات الإستراتيجية هـم روف، وكارن هيوز، وآندي كارد، ونائب رئيس أركان البيت الأبيض للشؤون السياسية جوش بولتين، وسكرتير أركان البيت الأبيض هارييت مايرز، ومستشارة السياسة المحلية مارغريت لامونتين، ومستشارة الأمن القومي كوندوليـزا رايس، ومستشـار الاقتصاد الوطني لاري ليندسـي، ومستشارة نائب الرئيس مـاري ماتالين، وضابط الارتباط لشؤون التشريع نيك كاليو. كان لنواب كبار المستشارين هؤلاء اجتماعاتهم الإستراتيجية الدورية الخاصة بهم. كانت القضايا التي تحتل الأولوية في اجتماعـات الإستراتيجية ترشح عبر سياسـة البيت الأبيض، ووسائل الاتصالات فيه، ومـن الأقسام التشريعية بحيث كان بالإمكان مناقشة الأفكار وتطويرها من أجل طرحها للنقاش في جلسات مقبلة. هكذا أصبحت ملماً بصياغـة الإستراتيجية، وذلك لأن كارن هيـوز كانـت تسألنا جميعاً في الاجتماعـات التي كنا نجريها في فريـق الاتصالات بشكل منتظم عن مواد وأفكار جديدة.

كانت كارن هيوز بصفتها مستشارة للرئيس، مسؤولة عن إدارة رسالة الرئيس، والإشراف على كل اتصالاته. كان دورها الرئيس يتمثل في المساعدة على تعميم الرسالة وتنفيذها في كل أرجاء البيت الأبيض، والإدارة بشكل عام. كما قامت بدور المستشار بالنسبة إلى معظم القرارات المهمة التي اتخذت على مستوى كبار الموظفين، ومن قبل الرئيس نفسه.

وهكذا فقد تداخلت السياسة مع المناورات السياسية بعمق في نسيج البيت الأبيض في عهد بوش. رأى أغلبنا ممن سبق له العمل في مجال العمل السياسي سواء لمدة قصيرة أم طويلة أن هذا أمر طبيعي، لا يشوبه أي شر أو فساد. رأينا أن الرئيس كان أكثر انفتاحاً وأكثر وضوحاً، وصدقاً من سلفه، محقاً بشأن مواقفه من القضايا المطروحة، كما كنا على اقتناع بأن آراءه متطابقة مع آراء معظم الأمريكيين. كنا نرى أن أنه لا يوجد تناقض بين هذه الافتراضات وبين وجود عملية سياسية كبيرة تُحَضّرُ داخل البيت الأبيض، ومكرسة لإطلاق أجندة عامة. إنها مجرد جزء من اللعبة السياسية، وهي مهمة لا بد من القيام بها؛ ويسعدنا ويشرفنا أن نشارك في صنعها.

ولكن عندما يخطو المرء خارج عتبة المعمعة في البيت الأبيض، ويعود بنظره إلى الماضي بمنظور الحاضر، تصبح من السهولة بمكان رؤية أن ما كنا نقوم به لا يختلف في كثير أو قليل مع ما كان يقوم به سلفنا المباشر. كانت لدينا، تماماً كإدارة كلينتون، هيكلية دقيقة لإدارة الحملة داخل البيت الأبيض، وهي التي حددت وجهتنا في معظم ما كنا نقوم به. كنا نركز دوماً على الطريقة التي نسيطر فيها على أجندتنا، ونصيغ الحبكة الإعلامية، ونبني الدعم الشعبي لسياساتنا - وهو بالضبط ما سعى إليه زعماء الحزب الديمقراطي في واشنطن. كان بوش قد قطع على نفسه عهداً بأنه سوف يغير من مسار الأمور في واشنطن. ولكن كيف له أن يقوم بالتغيير إذا كانت إدارته تمارس اللعبة نفسها، وبالشروط نفسها؟ لم أستطع تبيان التناقض في ذلك الوقت، والأمر نفسه كان بالنسبة إلى معظم زملائي باعتقادي.

إلا أن النظام كان فاعلاً - أقلّهُ في الشهور الأولى من عمر الإدارة. فقد ساعدنا على تمرير مشروع الرئيس في تخفيض الضرائب بحلول نهاية أيار، مايو. وقد ارتأينا أن كماً

كبـيراً من الفائض المتوقع في الميزانية والبالـغ 5,6 تريليون دولاراً (بما في ذلك مبلغ 2,6 تريليـون دولاراً مخصصـة للضمان الاجتماعي) يجب أن تعـاد لدافعي الضرائب. وهذا برأينـا سوف يؤدي إلى زيادة معدل النمو، وتوفير فرص العمل، ويخرج الاقتصاد (الذي وصفته بعض التقارير الاقتصادية في وقت لاحق، بالركود) من عجلة انحداره.

قـام بوش بزيارة سـت وعشرين ولاية خـلال المئة يـوم الأولى من رئاستـه، وركزت العديـد من هذه الزيارات على حث الجمهور كي يقـوم بالضغط على الكونغرس من أجل أن يتحـرك. كانت هنـاك الكثير من حملات التشكيك من قبل وسائل الإعلام، وفي بداية الأمـر، لم يحـظَ بوش بكثير مـن الدعم في استطلاعـات الرأي. لكن الجهـد المبذول في الحملة أثبت فاعليته ونجاحه بشكل لافت. فالرزمة التي تم تمريرها لم تكن تغطي كل ما أراد بوش تحقيقه، ولكنه حصل على معظـم ما كان يصبو إليه: خفضٌ للضرائب بمعدل 1,35 تريليـون دولار على مدى السنين العشـر القادمة، وهو مبلغ أقل بمعدل 1,6 تريليون دولار ممـا كان يطمـح إليه. تلقى بوش بعضاً من الدعم مـن كلا الحزبين، بما في ذلك الدعم الذي حصل عليه من اثني عشر من الديمقراطيين في مجلس الشيوخ.

كان مشـروع قانـون التعليـم الذي أطلق عليه بوش وصف «لا أطفال مـن دون تعليم» (NCLB) نقطـة إيجابية لصالح حملة الإدارة. ونظراً إلى أن مشروع القرار هذا، يهدف إلى ردم هـوة التحصيـل بـين مدارس المناطـق ذات الأداء العالي المستـوى وبين مدارس المناطـق ذات الأداء الأقل مستوى، فقـد تم تمريره في مجلسي النواب والشيوخ في أعقاب جهـد منظم بشكل جيد، مترافق بدعم شعبـي. وبعد أن تمت تسوية الخلافات حول عدد كبـير من التفاصيـل، بما في ذلك بعض الجدل الحزبي حـول مسائل تتعلـق بمستويات التمويـل (خصوصاً في مجلس الشيوخ الذي كان سيسيطـر عليه الديمقراطيون لاحقاً)، وبعد الاتفاق بين أعضاء لجنة المؤتمر، فقد تم إقرار مشروع القانون هذا، وتمت المصادقة عليه، فأصبح نافذاً اعتباراً من كانون الثاني، يناير، سنة 2002.

كان هناك الكثير من المطبات على طريق الإدارة في الأشهر الأولى من عمرها.

فقـد قرر السيناتور جيم جيفوردس عن ولاية فيرمونت وهو جمهوري معتدل منذ مدة طويلـة، أن يفجر الحـزب في الوقت الذي تقرر عرض تشريع خفضـ الضرائب للموافقة في نهايـة شهر أيار، مايو؛ ذلك أنه أصبح مستقلاً، وقدم دعمه للديمقراطيين موفراً لهم بذلك فرصة السيطرة على مجلس الشيوخ، ومهيئاً الأرضية للسيناتور توم داشل عن ولاية جنوب داكوتا كي يصبح رئيساً للأغلبية في مجلس الشيوخ.

سببت مدة الستين يومـاً المخصصة للمراجعة التنظيمية لأنظمة عهد كلينتون، والتي كانت ستدخل حيز التنفيذ، بعض المشكلات في الكيفية التي تم استقبالها من قبل الشعب؛ حينما تم رفض بعض قواعدها، أو إضعافها، ذلك أن بعض النقاد استغلوا هذه القرارات لتصوير بوش كمعادٍ للبيئة، أو كشخص يهتم بمصالح الشركات على حساب حماية أفراد الشعب الأمريكي.

أمـا حملـة الرئيس في مجـال الطاقة، التي قادهـا نائب الرئيس ديـك تشيني، فقد عقـدت سلسلـة من الاجتماعات مع مجموعـة من غير أصحاب المصالـح الذين أبقيت أسماؤهـم طـي الكتمان. وأعطت هذه اللفتة انطباعاً أولياً عـن هذه الإدارة بأنها ميالة نحـو السريـة، وعززت صـورة البيـت الأبيض في عهد بوش باعتباره مطيـة لأصحاب المصالح من الشركات.

وكمـا هي الحال بالنسبـة إلى أي إدارة جديدة، كان هناك نوع من الخلل الذي فرض علينـا تغيـير إجراءاتنا. على سبيـل المثال، حصلت عـدة تسريبـات إلى وسائل الإعلام حـول المناقشـات بشـأن إستراتيجية رسالـة البيت الأبيضـ - وهذا ما أثـار حنق بوش، وكارد، وروف، وهيـوز. ولكي تُمنَـعَ أي تسريبات مشابهة في المستقبل، أعيدت جدولة عدة اجتماعـات للتخطيط في مجال الإستراتيجية. فالاجتماع الذي كان يعقد مرتين أسبوعياً حـول رسالـة البيـت الأبيض تحـول إلى اجتمـاع عام يعرض فيـه البرنامج العـام، ونوع الموضوعات بدلاً من القيام بمناقشات علنية، ومداولات بشأن الأفكار. فقد تم تجيير هذه القـرارات الإستراتيجية إلى اجتماعـات يحضرها عدد أقل من المشاركين، وتقتصر على كبار المستشارين.

مع حلول فصل الصيف، بدا وكأننا نعاني بعض المشكلات في تحديد رسالة الصورة الشاملة كي نلج بها إلى الناس في وسط هذه الضوضاء الإعلامية. كنا نكافح من أجل إقرار تشريع ذي أولوية عالية مثل مشروع قانون يتعلق بحقوق المرضى، والمبادرة المرتكزة إلى العقائد. بدأت الانتقادات لعمليات البيت الأبيض في مجاليْ التشريع والاتصالات تطفو على السطح. كانت هناك الكثير من المناقشات داخل البيت الأبيض حول كيفية الخروج بطرق جديدة نركز فيها على أهم أولوياتنا بحيث تحذو وسائل الإعلام حذونا، وبحيث لا نقع في مطب الخوض في قضايا «الكرة الصغيرة»، أو نتعامل بمنطق ردة الفعل على أجندات الآخرين.

أما بالنسبة لي شخصياً، فقد كنت بدأت بالاستقرار في حياتي الجديدة، والتعود على مناخ عمليات البيت الأبيض الداخلية، والسفر مع الرئيس، والتعامل مع وسائل الإعلام الوطنية. في شهر نيسان، أبريل، كان عليّ أن أقف أمام ثلة ملؤها الحيوية من السلك الصحفي، والتي كانت تغطي أول أزمة لعهد بوش في البيت الأبيض في مجال السياسة الخارجية - أتحدث هنا عن عملية الهبوط الاضطراري البطولية في الأراضي الصينية لطائرة استطلاع أمريكية من نوع EP-3 Aries بعد اصطدامها في الجو مع مقاتلة صينية أرسلت لاعتراضها (وكانت نتيجة هذا الاصطدام سقوط الطائرة الصينية ومقتل قائدها). كان رجالنا، أعضاء طاقم الطائرة محتجزين في الصين في تلك الأثناء. نجح الرئيس وفريقه من أعضاء مجلس الأمن القومي في وضع نهاية سعيدة للموضوع من دون الحاجة إلى أي تصعيد في الأزمة، بما في ذلك عودة طاقمها من العسكريين. كان عليّ أيضاً الترتيب للقاء الصحفي الحيّ صبيحة اليوم الذي اتخذ فيه الرئيس قراره المثير للجدل حول البحوث في مجال الخلايا الجذعية، والذي أعلنه في الرسالة الأولى له وقت الذروة بصفته رئيساً من مدينة كروفورد في بداية شهر آب، أغسطس. كانت مثل تلك اللحظات بمثابة تعميد بالنار بالنسبة لي كناطق باسم الرئاسة، منحتني بعض الثقة المبكرة في قدرتي على التعامل مع تحديات مشابهة في المستقبل عند الضرورة.

كان التركيـز في الفترة الأولى من رئاسة بوش على الأجندة الداخلية؛ إلا أن الرئيس بـدأ بإثبات وجوده على صعيد جبهة السياسة الخارجيـة أيضاً. كان يدفع باتجاه سياسة الدفـاع الصاروخـي، التي ستـؤدي في نهاية المطـاف إلى انسحاب الولايـات المتحدة من معاهـدة وقف إنتاج الصورايخ المضادة للصورايخ الباليستية المبرمة مع روسيا (ABM). كانـت عمليـة تطوير القدرات العسكريـة تشكل أولوية قصوى بالنسبـة لبوش، وبدأ وزير دفاعـه دونالد رمسفيلد بالدفع باتجـاه وضعها حيز التنفيذ. وجه بوش خطابه الرئيس الأول في مجـال السياسة الخارجية في أوروبا عند توقفه في وارسو حيث حثّ على ضرورة نشر الحرية في العالم أجمع. ركز بشكل كبير أيضاً على موضوع الدبلوماسية الشخصية، حيث أسس لعلاقات شخصية متينة مع زعماء العالم من أجل تقوية تحالفاتنا.

كمـا أوضح بوش وفريقه من أعضاء مجلس الأمـن القومي أننا مصممون على اتخاذ مقاربـة أكـثر صرامة في التعامل مع صدام حسين ونظامه المارق، بالرغم من أن أحداً لم يكن يتوقع أن أزمة في تلك المنطقة كانت وشيكة. مع ذلك، كان بوش ومستشاروه يرسلون إشـارات واضحـة إلى صدام تفيد بأن عملاً عسكرياً قاسيـاً واردٌ إذا تجاوز ذلك النظام حـدوده، ولـن يكون ذلك العمل العسكـري مجرد ردٍ بالمثل. وفي الوقـت الذي تزايد القلق داخـل الإدارة من التـآكل التدريجي والمستمـر في نظام العقوبات الـذي اعتُمِد في العقد الماضـي، قامت روسيا بنقض مشروع قرار العقوبات الذكية على العراق والذي تقدمت به الولايات المتحدة إلى مجلس الأمن في صيف 2001.

لم تخـلُ الأشهر السبعة الأولى من عمـر الإدارة الأمريكية من عمليات الشد والجذب السياسـي. كنـت متأكداً من أن واشنطن ليسـت تكساس. كانت الثقـة معدومة بين قادة الحزبـين في الكونغرس. وكانت ذكريـات المواجهات الماضية كثيرة، كما كان انعدام الثقة عميقـاً بينهما. كانـت مرارة نتائج انتخابات سنة 2000 ما تـزال تحوم فوق رؤوس بعض الديمقراطيـين. وكان الشك حول مسألة ما إذا كان الرئيس صادقاً في الشعار الذي رفعه في أنه سيكون «موحداً لا مفرّقاً» أمراً شائعاً؛ كما أن بعض الليبراليين شككوا في أن عبارة

«المحافظ ذي القلب الرحيم» ليست أكثر من تناقض عديم المعنى. لكننا في إدارة بوش، كنا نستمتع بنجاحاتنا التي تجاوزت الحدود الحزبية في مجاليْ قانون خفض الضرائب، وقانون «لا أطفال من دون تعليم» لدرجة أننا كنا متفائلين بإمكان توحيد الأمة وراء أجندة يتبناها بفخر معظم الأمريكيين؛ إن لم أقل كلهم.

ولكن بعد ذلك، جاء اليوم الذي تغير فيه كل شيء.

obeikandl.com